المجنون

ـ ٦ ـ

ـ تتمَّة ـ

وطال المجلسُ بنا ، وبالمجانين ، والكلامُ على أنحائِه يندفعُ من وجهٍ إلى وجهٍ ، ويمرُّ في معنى إلى معنى ؛ فأردتُ أن أبلغَ به إلى الغاية الَّتي جمعتُ من أجلها هذين المجنونين ، بعد ما انطلقا في القول ، وانفتح القُفلُ الموضوع على عقل كلٍّ منهما .

وكان قد مرَّ في النَّديِّ بائع روايات مترجمةٍ «بوليسيَّةٍ، وغراميَّةٍ، ولصوصية ! » يحمل الرجلُ منها مَزْبَلَة أخلاقٍ أوربيَّةٍ كاملةٍ ؛ لينفضَها في نفوسِ الأحداث من فتْياننا ، وفتَياتنا ، فقلت (لنابغة القرن العشرين) : أتقرأُ الرِّوايات ؟ قال : لا ، إلا مرَّةً واحدةً ، ثم لم أُعاوِدْ ؛ إذ جعلتني الرِّوايةُ روايةً مثلها .

قلنا : هذا أعجبُ ما مرَّ بنا منذ اليوم ، فكيف صرتَ روايةً ؟

قال: أنتم لا تعرفون طبيعة النَّوابغ؛ إذ ليس لكم حِسُّهم المرهَفُ ، ولا طبعُهم المستحكم ، ولا خصائصهم الغيبيَّة ، ولا خواطرُهم المتعلِّقةُ بما فوق الطَّبيعة .

قلت : نعم أعرف ذلك ؛ وما من (نابغةٍ) إلا وهو بين عالَمين على طرَفٍ ممَّا هنا ، وطرفٍ ممَّا هناك ، فهو خرَّاجٌ ، ولاجٌ بين العالَمين ؛ وله نفسٌ مركَّبةٌ تركيبَها على نواميسَ معروفةٍ ، وأخرى مجهولةٍ ؛ فهي تأخذ من الظَّاهر ، والباطن معاً ، ويحصرها المكانُ مرَّةً ، ويُفْلِتُها مرَّةً ، وتكون أحياناً في زمانِ الأرض ، وأحياناً في زمن الكواكب من القمر فصاعداً . . . . . ولكن . . . .

فقطع عليَّ ، وقال : أضف إلى ذلك : أنَّ هذه العقولَ الَّتي تَحصرُ من يسمُّونهم العقلاء في الزَّمان ، والمكان ، لا تُوجِدُ أهلَها إلا الهموم والأحزان ، والمطامع السَّافلة ، والأفعال الدَّنيئة ، فإنَّهم يعيشون فوقَ التُّراب .

قلت : نعم ، وإذا عاشوا فوق التُّراب فباضطرارٍ أن تكونَ معاني التُّراب فوقهم ، وتحتَهم ، ومِنْ حولِهم ، وبين أيديهم ، فليسوا يقطعون على هذه الأرض

إلا عمراً ترابياً في كلِّ معانيه ، ولكن . . .

قال : وزد على ذلك : أنَّهم مقيَّدون تقييدَ المجانين ، غير أنَّ حِبالَهم ، وسلاسلَهم عقليَّةٌ غيرُ منظورةٍ ؛ وبتَغْليلِهم تغليلَ المجانين يسمُّون أنفسَهم عقلاء ، وأعقَلُهم أثقلُهم قيوداً ، وهذا من الغرابة ، كما ترى .

قلت : نعم ، أمَّا العقلاءُ بحقيقة العقل ؛ فهم الذين يضحكون على هؤلاء ، ويسخَرون منهم ؛ إذ كانوا في حالٍ كحالِ المنطلقِ من المقيَّد ، وفي موضعٍ كموضع المعافَى من المبتلَى ، ولكن . . .

قال : وفوق هذا وذاك ، إنَّهم لا يملكون السَّعادة ؛ إذ ليس لهم العقلُ الضَّاحكُ السَّاخرُ العابثُ ؛ الذي خُصَّ به النَّوابغُ ، وكان الأوحدُ فيه (نابغة القرن العشرين) .

قلت : نعم ، وإذا ملكوا السَّعادةَ لم يشعروا بها ؛ أمَّا (النَّوابغ) فقد لا يملكونها ، ولكن لا يفوتُهم الشُّعورُ بها أبداً ، فيجيئهم الفرحُ من أسبابه ، ومن غير أسبابه ما دام لهم العقلُ الضَّاحكُ ، السَّاخرُ ، العابثُ ؛ الذي دأبُه أبداً أن يَنسى ؛ ليضحك ، ولا قانون له إلا إرادةُ صاحبه ، على مشيئة صاحبه ، لمنفعة صاحِبِه . ولكن . . . . . .

قال : والذي هو أهمُّ من كلِّ ما سبق ؛ أنَّ أعظمَ خصائص هذا العقل الضَّاحك ، السَّاخرِ ، العابثِ أن يطردَ عن صاحبه ما لا يحبُّ ، ويجنِّبَه أن يخسرَ شيئاً من نفسه ؛ فهو لذلك يجعل حسابَه مع الأشياء حساباً يهودياً لا بدَّ فيه من ربح خمسين في المئة .

قلت : نعم ، وهو دائماً كالطِّفل ؛ وما أظرفَ بلاهةَ الطِّفلِ ، وما أجداها عليه ؛ إذ يضع بلاهتَه دائماً في أرواح الأشياء ، وأسرارِها ، فتخرجُ بلهاءَ مثلَه ، وتنقلبُ له الدُّنيا كأنَّها أمٌّ تُضاحِكُ ابنَها ، وتُلاعبه . ولكن . . .

قال : ولكن هذا مبلغٌ لا تبلغه الإنسانيَّةُ إلا شذوذاً في أفرادها من جبابرة العقول (كنابغة القرن العشرين) .

قلت : نعم (ولكن) كيف صار (نابغة القرن العشرين) راويةً حين قرأ الرِّواية ؟!

قال : هذه نكتةُ النُّبوغ ؛ فلو أنَّ مؤلفها كان نابغةً مثلَنا ، يتلقَّى في نفسه وحيَ الأثير ، وإشاراتِ الرُّوح الأعظم ؛ لعلم من الغيب : أنَّ (نابغة القرن العشرين) سيقرأ روايته ، فكان يتحرَّى معانيَ غيرَ معانيه ، ويتوخَّى بهذه القصَّة وضْعاً آخرَ لا تكونُ فيه حبيبةٌ خائنةٌ ، ولا لصٌّ عارمٌ[1] ، ولا قاتلٌ سفَّاحٌ ، ولا سجنٌ مظلم ، ولا محكمةٌ تقول : حيث ، وحيث . . . . .

قلت : وما عليك من حبيبةٍ خائنةٍ في الورق ، ولصٍّ بين الحروف المطبعيَّة ، وقاتلٍ لا يقتل إلا كلاماً ، وسجنٍ ، ومحكمةٍ على الصَّحيفة لا على الأرض ؟

قال : هذه نكتةُ النُّبوغ ، فما استوعَبْتُ القصَّةَ حتَّى غمَرتْني أشخاصُها ، وأُقحِمْتُ منها على هَوْلٍ هائلٍ ، فخانتني الخائنة لعنها الله . . ! ولولا خوفُ السِّجن ، والمحكمة ، لقتلتُها أشنعَ قِتْلةٍ ، ومثَّلتُ بها أقبح تمثيلٍ . ويْحَ الخائنةِ كيف استمالها ذلك الدَّميمُ ، الطَّويلُ ، العِملاقُ ، المشبوحُ العظام ، المفتولُ العضَل ؟ ولكنِّي لستُ عملاقاً ، ولا مَبْنيّاً بناءَ الحائط ، ثمَّ كان مجنوناً بشهواته جنونَ الفيل الهائج ، وكنتُ في شهواتي عاقلاً عقلَ الإنسان ، ثمَّ كان غنيّاً غِنَى الجهَّال ، وكنت فقيراً فقرَ العلماء . والنِّساءُ ؛ قبح الله النساء ! إنَّهن زينةٌ تطلبُ زينةً مثلَها . وإنَّ المرأةَ لتَمنحُ وجهَها للقرد يقبِّله ؛ إذا كان الذَّهبُ يتساقط من قُبُلاته . أمَّا من كان مثلي ، أموالُه الشَّبابُ ، والجمالُ ، والعقلُ ، والنُّبوغ ، فهو مُفلسٌ عندهنَّ إفلاسَ القرد في الغابة ، فهو عندهنَّ قردٌ لهذه المشابهة .

قلت : هذا ليس عجيباً ؛ فإنَّ اللغويين يُجرون على الشَّيء اسمَ ما يقاربه في المعنى .

قال المجنون الآخر : « ممَّا حفظناه » أنَّ اللغويين يجرون على الشَّيء اسم ما يقاربه في المعنى .

فتربَّدَ وجهُ (النَّابغة) غضباً ، وقال : أبي يلعبُ هذا المجنون ؟ إنَّه يزعم أنَّ اللغويين يسمُّونني قرداً ، فهاتوا القواميس كلَّها ، وارجعوا إلى مادَّة (قرد) ومادَّة (نابغة) . . . سَوْءَةً عليك[2] أيُّها الصَّبيُّ المعمَّر . . . ألا فدعوني أؤدِّبه أدبَ

(١) « عارم » : عَرُم الرجل : شَرِس ، واشتدَّ .
(٢) « سوءة لك » : أي : قُبحاً لك .

الصِّبيان ، فإنَّ اللَّطمةَ القويَّة على وجه الطِّفل المكابرِ في حقيقة تُلمِسُه الحقيقةَ ؛ التي يكابر فيها ؛ إذ تدخلها إلى عقله من أقربِ طريق .

قلت ا . ش : أنت قلت ، لا هو : على أنَّك لستَ قِرداً أبداً إلا عند امراة جميلةٍ ، فاتنةٍ ، متخيِّلةٍ ، متماجِنةٍ ، قد تضع البردَعة[1] على ظهر الأمير ، وتجعلُه حمارَها ، فيُعْجبُ الأميرُ أن يكون حمارَها . ولست قرداً مع قَرَّادٍ إلى جانب عنزٍ ، وكلب .

قال : الآن علمتُ السَّبب ، فإنَّ الخائنة كانت متخيِّلةً مؤلِّفةَ كتُبٍ وروايات ، والمرأة الَّتي تؤلِّف الكتب غيرُ بعيدٍ أن تؤلفَ الرَّجُلَ أيضاً ، وتجعلَه قصَّةً هو فيها قرد . . . وهذا إن كانت جميلة كامرأة الرِّواية . أمَّا إن كانت دميمةً مجموعةً من المتناقضات ، أو عجوزاً مجموعةً من السِّنين ؛ فهذه ، وهذه كلُّ أيَّامها كيوم الأحد عند النَّصارى . . . يومٌ للعُطلة ، لا بيع فيه ، ولا شراء ، ولا مساومة . هذه ، وهذه كلتاهما تجعل الرَّجلَ كالماء في سبيل التجمُّد . . . لا يشتعل ، فضلاً عن أن يَسْتَعِرَ ، فضلاً عن أن يحترق .

ومؤلِّفة الكتب لا يكون وجهُها إلا إحدى وثيقتين : فإمَّا جميلةٌ ، فوجهها وثيقةٌ بأنَّ لها ديوناً على الرِّجال ؛ وإمَّا غيرُ جميلة ، فوجهُها (مخالَصة) من كل الدُّيون .

قلنا : هذا في الخائنة . فكيف سرقك اللِّص ، ولست غنيّاً ؟

قال : هذه هي نكتة النُّبوغ ؛ وفي النُّبوغ أشياء لا ينكشف تفسيرُها ، وليس في جهلها مضرَّةٌ على أحدٍ ، وجهلٌ لا يضرُّ هو علمٌ لا ينفع ، لكنَّه علم . والبحثُ في بعض أعمال (النَّابغة) هو كالبحث عن سرِّ الحياة فيه ؛ إذ يعملُ أعمالَه تلك بسرِّ الحياة ، لا بسرِّ العقل ؛ أي : بالعقل النَّابغ الخاصِّ به وحده ، لا بالعقل الطَّبيعيِّ المشترك بين النَّاس .

* * *

قلت : ومن عجائبك أنَّك لا تقرأ الرِّوايات ، ولكنَّك مع ذلك تؤلفها .

قال : إنَّ ذلك ليكون ، وإن لم أؤلِّفها أنا تألَّفتْ هي لي . فإذا تقدَّم الليل ،

---

(١) « البردعة » : ما يُوضَعُ على الحمار أو البغل ليُركَب عليه ، كالسَّرج للفرس .

ونام النَّاس جميعاً ؛ انتبهتُ أنا وحدي لرواية العالم ، فأرى ما شئتُ أن أرى . وفي ضوء النَّهار أجدُ النَّاسَ عقلاء ، ولكنِّي في ظلمة اللَّيل أبصرهم مجانين . فهذا اللَّيل برهانُ الطَّبيعة على جنونِ النَّاس ، وضعفِ عقولهم ؛ إذ هو يثبتُ حاجةَ هذه العقول إلى ضَرْبٍ من النِّسيان الأبلهِ التَّامِّ ، لولاه ما عقلتْ في نهارها ، ولا استقام لها أمرٌ .

يُصْرَعُ النَّاسُ في اللَّيل صرعةَ المجانين ، فيُغمِضون أعينَهم ، ولا يرَون شيئاً . أما أنا فأرى العالَم في اللَّيل مسرحاً هزليّاً ، يضجُّ بالضَّحك من الإنسان الأحمق الذي يقطع سَرَاةَ نهارِه ، وهو معتقدٌ : أنَّه قابضٌ على الوجود بالأعين ، والآذان ، والآناف . . . أئِنْ رأيتَ الأسدَ بعينك أيُّها الأحمق ! وسمعتَ في أذنيك زئيرَه ، ادَّعيتَ الدَّعوى العريضةَ ، وزعمتَ : أنَّك ملكتَه ، وقبضتَ عليه ، ولا تدري في هذا أنَّك كالمعتوه إذا قبض على الظلِّ بيده ، وصاح : هاتوا الحبل ؛ لأقيِّدَه لا يُفْلِت ؟ . .

قلت : فإذا كان العالم كلُّه روايتَك ؛ فأخرج لنا فصلاً من الرواية .

قال : أيُّما أحبُّ إليكم : أن أكتبَ ، أو أمثِّل ؟

قلنا : بل التمثيلُ أحبُّ إلينا . فنظر المجنون الآخر ، وقال : إنَّ المجنونَ في طبيعته ينبوعٌ من الأشخاصِ يفيض حالاً بعد حالٍ ، كينبوع الماء يَسُحُّ الدَّفعةَ بعد الدَّفعة ، فهنا المسرحُ ، والرِّوايةُ الآن روايةُ الطَّبيب ، والمجنون .

* * *

أنت يا س . ع . عمٌّ هذا المجنون . فإذا قال لك : يا عم ! قل له : أنا لستُ ولكنِّي أخو أبيك . . . لننظر أيتنبَّهُ على الفرق بين الصِّيغتين ، أم لا ؟ فإنَّه فَرْقٌ عقليٌّ دقيقٌ ، تُمتحَنُ به العقول .

تعالَ أيُّها المريض فإني أرجو أن يكونَ شفاؤك على يدي ، وفي يدي هذه لمسةٌ من لَمَسَات المسيح ؛ لأنَّ (نابغة القرن العشرين) هو الآن طبيبُ القرن العشرين .

اتَّقوا أن تُغضبوه ، أو تخيفوه ، وأقيموا له كلَّ ما يحتاج إليه ، وتحرَّوا مسرَّتَه دائماً ، فإنَّ إدخالَ بعض السُّرور إلى نفس المجنون هو إدخالُ بعض العقلِ إلى رأسه .

متى أنكرتَ يا س . ع ! عقلَ ابنِ أخيك ، وما كان السببُ ؟ وكيف غُلبَ على عقله ؟ وهل ا . ش . هو خالُه ، أو أخو أمه ؟ .

لَطَفَ اللهُ لك أيُّها المسكين ! قل لي : أتتذكر أمسِ ؟ أتتذكر غداً ؟ . . . إنَّ الأمس ، والغدَ ساقطان جميعاً من حساب المجانين ؛ ومن الرَّحمة بهم أنَّ الدُّنيا تَبدأ لهم كلَّ يومٍ ، فقد استراحوا من ثلثي هموم الزَّمن في العقلاء . وهم لا يصلحون أن ينفعوا النَّاس كالعقلاء ، غير أنَّهم صالحون أكثرَ من العقلاء للانتفاع بأنفسِهم في الضَّحك ، والمرح ، والطَّرب ، وهذا حَسْبُهم من النِّعمةِ عليهم .

قل لي أيُّها المَجنون ! أتُحِسُّ أن الدُّنيا تَصنعُ لك نفسَك ، أم نفسُك هي تصنعُ لك الدُّنيا ؟ إنَّ هذه مسألة يحلُّها كلُّ مجنونٍ على طريقته الخاصَّة به ، فما هي طريقتك في حلِّها ؟ .

مالَكَ لا تُجيب أيُّها الأبله ؟! هذا من جهةٍ ، ومن جهةٍ أعطوه قرشاً لينطلِقَ لسانهُ ، وآتُوا الطَّبيبَ أجرَه وافياً ، وهو لا يقلُّ عن قرشين .

ثمَّ مال (النَّابغة) على مجنون المتن ، وسارَّه بشيءٍ . فقلنا : ما أمرُ المال بسِرٍّ ؛ هذا قرشٌ للمريض وهذان قرشان للطَّبيب .

فقال المجنون : « ممَّا حفظناه » كفى بالسَّلامة داءً .

قال « الطَّبيب » : هذا مريضٌ بنوعٍ من الجنون اسمُه « ممَّا حفظناه » وهو جنونُ النِّسيان الذي يضع في مكان العقل كَلمةً ثابتةً لا يتذكر المجنونُ إلا بها ؛ ومن أعراضه جنونُ الشَّكِّ ، فكلُّ ما حول المريض مشكوكٌ فيه ، وقد يترامَى إلى جنون اللَّمس ، فلو لمستَه بإصبعك ؛ توهَّمها عقرباً ، فخاف من الإصبع تلمسهُ خوفَه من العقرب تَلدغُه ، ولكن بقيتْ أشياء لا بدَّ من التَّدقيق في فحصها ، فليس هذا من مجانينِ العبقرية الَّتي انحرفتْ عن طريقها ، أو شذَّت في قوَّتها ؛ ولا هو ممن يَتَجَانُّ ، ويَتحَامقُ التماساً للرزق ، والعيش ، كما قال بعضهم : حماقةٌ تَعولُني خيرٌ من عقلٍ أعولُه .

فقال المجنون : « ممَّا حفظناه » حماقةٌ تَعولني . . .

فضحك (النَّابغة) وقال : هو كما بيَّنتُ لكم مصابٌ بجنونِ « ممَّا حفظناه » وهو أقلُّ الجنون ، وأهونُه ، وعلاجُه البَسْطُ ، والسُّرورُ ، والقرش ؛ والضَّربُ

أحياناً . . . فإذا ثابرَ عليه الدَّاءُ ؛ تحوَّلَ إلى جنون (ممَّا ضَربناه) . . . فيعتدي المصابُ على كلِّ مَنْ يراه ، أو يُوقِعُ به ضَرباً ، وعلاجُه حينئذٍ القميصُ المرقوم[1] ؛ فإذا فَدَحتِ العلَّة انقلب المرضُ إلى جنونٍ (ممَّا قتلناه) . وعلاجُه يومئذٍ السَّلاسل ، والأغلال .

والحق أقول لكم : إنَّ آخرَ ما انتهت إليه فلسفةُ الطِّبِّ في القرن العشرين : أنَّ الناسَ جميعاً مجانينُ ، ولكنَّ بعضَهم أوفرُ قِسْطاً من بعض . كأنَّ سلْبَ العقلِ هو أيضاً حظوظٌ ، كحظوظ موهبةِ العقل . وأهلُ المرِّيخ من أجل ذلك يسمون الأرض بيمارستان الفَلَك .

ولكن بقيتْ أشياء لا بدَّ من التَّدقيق في فحصها ؛ وعندي في الدَّارِ عاطُوس إذا أشممتُه هذا المجنونَ عَطَسَ به عطسةً قوِّيةً ، فخرج جنونُه من أنفه . . . قل لي أيُّها المسكين ! أتخاف إذا سرتَ وحدك في مَيدانٍ واسعٍ كأنَّ الميدانَ سيلتفُّ عليك ؟ أتضطربُ إذا مشيتَ في مَضيقٍ ، كأنَّ المكانَ سينطبقُ عليك ؟ وإذا كنتَ في عربة القِطار فهل يخيَّل إليك أنَّ البيمارستان قَد جرَّه القِطار ، وانطلق به هارباً ؟ وهل شعرتَ مرَّةً : أنَّه أوحيَ إليك أن تَنتحِر ؟

أرِني هذا القرشَ الذي في يدك . فمدَّ إليه المجنون يَده بالقرش .

قال (النَّابغة) : انظر الآن هل تُحدِّثك نفسُك أن تَغْصِبَني هذا القرشَ أو تسرِقَه منِّي ؟ قال : نعم .

قال (النَّابغة) : إذاً يجب أن أحرِزَه في جيبي . . . وأسرع ، فأخفاه في جيبه .

* * *

فصاح الآخر ، وشَغَب ، وقال : سلَبَني ، ونَهَبَني . قلنا : لا ينبغي أن يتَّصلَ بينكما شرٌّ في تمثيل الرِّواية ، فهذا قرشٌ آخر ، ولكن أفي الفلسفة عند (النَّابغة) إباحةُ السَّرقة ، والغصْب ؟

---

(١) « القميص المرقوم » : قميص السجن ، يلبسه المسجون ، ويرقم عليه العدد الذي يُسمَّى اليوم (النِّمرة) وقد كان هذا معروفاً في التمدن الإسلامي . (ع) .

قال : فالرِّواية الآن هي رواية الفيلسوف العظيم : أفلاطون ، وتلميذه : أرسطو .

قل لي ويحك يا أرسطو ! أعلمتَ : أنَّ في المجانين أغنياءَ يسرقون الشَّيءَ القليلَ لا قيمةَ له ؛ وهم أغنياء ، وليست بهم حاجةٌ إليه . فما علَّةُ ذلك عندك ، وما وجهُه في مَقُولَةِ الجنون ؟

أعجَزْتَ عن الجواب ؟ إذاً فاعلم يا أرسطو ! أنَّ المصابَ بهذا الضَّرب من الجنون إذا اشترى هذا الشَّيءَ بدرهم ؛ كانت قيمتُهُ من الدِّرهم وحده ، وهو غنيٌّ لا قيمةَ للدِّرهم في ماله ، فلا يَحفِلُ بالشِّراء ، بَيْدَ : أنَّه إذا سرقه ؛ كانت قيمتُه عنده من عقلِه ، وحيلتِه ، فيجيئُه بلذةٍ ؛ لا تشتريها كلُّ أمواله ، ولا كلُّ أموال الدُّنيا . فهذا جنونٌ باللَّذة ، لا بالسَّرقة ، وهو بذلك ضَربٌ من العِشْق ، يجعلُ الشَّيءَ إذا لم يُسْرَق كأنَّه المرأةُ المعشوقةُ الممتَنِعَةُ على عاشقها .

والْجِياعُ إذا سرقوا ليأكلوا ، ويُمسِكوا الرَّمَق على أنفسهم ؛ لا يقال في لغة الفلسفة : إنَّهم سرقوا ، بل أخذوا . . . فباضطرارٍ جاعوا ، وباضطرارِ مثلِه أكلوا ، والسَّارقُ هنا هو الغنيُّ الَّذي منعهم الإحسانَ ، والمعونة .

فالدُّنيا معكوسةٌ منقلبةٌ أوضاعُها يا أرسطو ! ولو استقامت هذه الأوضاعُ ؛ لوُجدتِ السَّعادةُ في الأرض لأهل الأرض جميعاً . وكيف لك بالسَّعادة والنَّاسُ مخلوقون بعيوبهم ؟ ويا ليتهم مخلوقون بعيوبهم فقط ! ولكنَّ الطَّامَّةَ الكبرى : أنَّ عيوبَهم تعملُ دائماً على أن تَرى في الآخرين عيوباً مثلَها .

كلُّ حمارٍ فهو يريد أن يملأ جوفَه تبناً ، وفولاً ، وشعيراً ، غيرَ أنِّي لم أر حماراً قطُّ يريد أن يملأَ لنفسه الإصطبل ؛ فإذا وُجِدَ حمارٌ هذه همَّتُه ، وهذا عملُه ؛ فاسمُه إنسانٌ ، لا حمار .

يا أرسطو ! إنَّ معضلَةَ المعضلاتِ أن يحاولَ إنسانٌ حلَّ مشكلةٍ داخليةٍ مخْضةٍ قائمةٍ في نفس حمارٍ ، أو ثابتةٍ في ذهنه الحِمَاريِّ . . . ومثلُ هذا أن يحاول حمارٌ حلَّ مشكلةٍ نفسيَّةٍ في ذهنِ إنسانٍ ، أو في قلبه ، فلا حلَّ لمشاكل العالَم أبداً ما دام كلُّ إنسانٍ مع غيره كحمارٍ مع إنسان .

والمعضلاتُ النَّفسيَّةُ من عمل الشَّياطين ، فكان ينبغي أن تجيءَ الملائكةُ

لتحارِبَ الشَّياطينَ بالبرق ، والرَّعدِ دفاعاً عن الإنسانيَّة ؛ ولكنَّ الله تعالى منعها ، وأرسل للإنسان ملائكةً أخرى ، إن شاء هذا الإنسانُ ؛ عمِلتْ ، وإن شاء ؛ عجزتْ ، وهي فضائلُ الأديان الْمُنْزَلةِ . فإذا منحها الإنسانُ إرادتَه ، وقوَّتَه ، فعملتْ عملَها ؛ كان الإنسانُ هو المَلَك ، بل فوق المَلَك ، وإذا أضعفها ، ومَحَقَها ؛ كان الإنسانُ هو الشَّيطان ، وأسفلَ من الشَّيطان .

يا أرسطو[1] ! « هذا العالَم ؛ عندي كتلةٌ من العدم اتَّفقت على الظُّهور ، وستختفي . والعالَم عندي ضعفٌ ركِّب ، وقوةٌ ركبت . والعالم عندي لا شيء . والعالم بيْن بيْن . والعالم قسمان : منهم الفلاَّح الزِّراعي ، وذلك أفضل فلسفةٍ طبيعيَّةٍ . . . والعالم في حاجةٍ إلى الموت ، والموتُ في حاجة إليه . والأدبُ هو الحياة ، ولا حياة بلا أدب . والأدبُ ضربان : أدبٌ نفسانيٌّ ، وأدبٌ مكتسَبٌ ، وقد يكون طبيعيّاً كما هو عند نابغة القرن العشرين . ومن هو نابغة القرن العشرين ؟ هو شخصٌ مات بلا موتٍ ، ويحيا بلا حياةٍ » .

أتريد يا أرسطو ! أن تعرفَ سرَّ تركيب العالَم ؟ الأمْر يسيرٌ غيرُ عسيرٍ ، فإنَّ سرَّ تركيبه كسرِّ تركيب القرش ؛ الذي في يدك ، فدعني أظهِرُك على هذه الحقيقة ، ومُدَّ يدَك بالقرش ؛ لأبيِّنَ لك سرَّ التَّركيب فيه .

* * *

ولكن المجنون الآخر أسرع ، فغيَّب القرش في جيبه . فقال (النَّابغة) : هذا سياسيٌّ داهيةٌ خبيثٌ . والرِّواية الآن رواية سياسيِّ القرن العشرين .

ليس في حقيقة السِّياسة إلا الرَّذْلُ من أفعال السِّياسيين . والألفاظُ السِّياسيَّة التي تحملُ أكثرَ من معنىً هي التي لا تحملُ معنى .

فليحذر الشَّرقُ من كلِّ لفظٍ سياسيٍّ يحتمل معنيين ، أو معنى ونصفَ معنى ، أو معنى وشِبْهَ معنى ؛ فإن قالوا لنا : (أحمر) قلنا لهم : اكتبوه بهذا اللفظ ؛ فإذا كتبوه ؛ قلنا لهم : ارسموا إلى جانبه معناه باللَّون الأحمر ؛ لتشهدَ الطَّبيعةُ نفسُها

---

(١) هذه الأسطر التي وضعناها بين القوسين هي من كلام المجنون بالنَّص ، وكنا سألناه أن يكتب رأيه في العالم ، والحياة ، فكتب على البديهة مقالةً كلها تخليط ، وتندُّر ، فيها كلمات كأعمق ما تجيء به مذاهبُ الفلسفة .

على : أنَّ معناه أحمر ، لا غير . . . وعلى هذه الطَّريقة يجب أن تُكتَب المعاهداتُ السِّياسيَّة بين أوربة ، والشَّرق .

إنَّهم يكتبون لنا جريدةً بأسماء الأطعمة ، ثُمَّ يقولون : أكلتم ، وشبِعتم . . . . ولقد رأيتُ (مظاهراتٍ) كثيرةً ولا كالمظاهرة الَّتي أتمنَّاها ؛ فما أتمنَّى إلا أن يخرج كلُّ المجانين في مظاهرةٍ .

وهذا الأبله الَّذي أمامنا ليس وطنيّاً ، ولا فيه ذرَّةٌ من الوطنيَّة ؛ فإن كان وطنيّاً ، أو زعم : أنَّه وطنيٌّ ؛ فليخرج القرشَ الذي في جيبه . . . . ليكون فألاً حسناً لخروج جيش الاحتلال من مصر .

* * *

ولكنَّ المجنون لم يخرج القرش ، وترك جيشَ الاحتلال في مكانه .

فقال (النَّابغة) : الرِّواية الآن رواية الشُّرْطي واللِّص . وبحقٍّ من القانون يكون للشُّرْطيِّ أن يفتِّش هذا اللِّصَّ ؛ ليخرج القرشَ من جيبه .

* * *

غير أنَّ المجنون امتنع . فقال (النَّابغة) : كلُّ ذلك لا يجدي مع هذا الخبيث ، فالرِّواية الآن رواية هارون الرشيد مع البرامكة . ويجب أن يَنكُبَ الرَّشيدُ هؤلاء البرامكة ، ليَسْتَصْفيَ القرش .

* * *

بيد أنَّنا منعناه أن ينكُبَ « البرامكة » فقال : الرِّواية الآن رواية العاشق والمعشوقة ، ونظر طويلاً في المجنون ، وصعَّد فيه عينَه ، وصوَّب ، فلم ير إلا ما يذكِّر بأنَّه رجلٌ ، فتَهدَّى إلى رأيٍ عجيبٍ . فوقع على قدميه ، وتوهَّمه امرأةً في حِذائها . . . وجعل يناجِي الحذاءَ بهذه المناجاة :

إنَّ سخافاتِ الحبِّ هي أقوى الدَّليل عند أهله على أنَّ الحبَّ : غيرُ سخيفٍ ، فكلُّ فكرةٍ في الحبِّ ـ مهما كانت سخيفةً ـ عليها جَلالُ الحبِّ ؛ وللحذاء في قدميكِ يا حبيبتي جمالُ الصُّندوق المملوءِ ذهباً في نظرِ البخيل ، وكلُّ شيءٍ منكِ أنتِ فيه سرُّ جمالكِ أنتِ . والحذاءُ في قدميكِ ليس حذاءً ، ولكنَّه بعضُ حُدود جسمك

الجميل ، فلا أكون كلَّ العاشقِ حتَّى أحِيطَ بكل حُدودِك إلى الحِذاء .

إنَّ جسمَكِ يا حبيبتي ! كالماء الجاري العذْب ، في كلِّ موضعٍ منه روحُ الماءِ كلِّه ؛ وحيثما وَقَعت القُبلة من جسمِكِ ؛ كان فيها روحُ شفتيكِ الورديَّتين . هذه قبلةٌ على قدميكِ يا حبيبتي ! وهذه قبلةٌ على ساقِكِ ، وهذه قبلةٌ على ثوبِكِ ، وهذه قبلةٌ على جَبْيك .

وكادت يدُ (النَّابغة) تَخرجُ بالقرش ؛ فعضَّه المجنونُ في كَتِفه عضَّةً وحشيَّةً ، فجأه الخوفُ منها ، فطار صوابُه ؛ فصرخ صرخةً عظيمةً ، دوَّى لها المكان ، وتردَّدت كصَرْصَرَةِ البازيِّ في الجوِّ ، ثُمَّ اعتراه الطَّيف ، وأطبقَ عليه الجنون ، فاختلط ، وتخبَّطَ .

(والرِّوايةُ الآن) ؟ . . . . رواية عربة الإسعاف .

* * *
* *
*